المصطلحات في النقد العربي القديم ودورها في إثراء الجهاز المصطلحي للغة العربية

د. بوعامر بوعلام

تقديم:

استطاع النقاد العرب القدماء –لاسيما في العصر العباسي- أن يصطنعوا لمفاهيم النقد عندهم ألفاظا وعبارات بلغتْ درجة متقدمة من الدقة والخصوصية والوضوحية، أهلتها لأن تكتسب سمة الاصطلاح، ولئن كان بعضها في مستويات أدنى من مستوى المصطلحات الحديثة والمعاصرة –بطبيعة الحال- لقد كانت يومذاك مستوفية للكفاية والكفاءة الضروريتين للتعبير عن كل القضايا النقدية التي شغلت النقد العربي القديم، والتي كان الأدب العربي -والشعر منه تحديدا- يطرحها وهو يسير سيره نحو التطور والنضج، مع تطور الحياة بجميع مظاهرها الثقافية والفكرية والفلسفية وغيرها، ودخول الأدب عصره الذهبي في العصر العباسي الذي فتح للأدب العربي، ومن ورائه النقد الأدبي منافذَ جديدة، ومد أمامهما آفاقا رحيبة لم تكن متاحة من قبل، وكانت بحق مصطلحات تجمعت فيها جل الخصائص والضمائم التي تُشترط عادة للارتقاء بالألفاظ والعبارات من دلالتها اللغوية العامة والمعجمية الشائعة إلى مصاف الدلالة الاصطلاحية.

وسائل الاصطلاح وآلياته في اللغة العربية:

ولقد وجد النقاد العرب القدماء في سعة اللغة العربية وحيويتها، ووسائلها الإجرائية وآلياتها ما يسّر لهم وضع المصطلح المناسب لكل مفهوم مهما بلغت دقته، ولكل قضية أنى بلغ تعقدها، وليست تلك الوسائل إلا علوم العربية المختلفة والمتنوعة التي تأصلت ونضجت في فترة زمنية قياسية، لم يشهد لها تاريخ العلوم نظيرا ولا عرفت الأمم السابقة أو اللاحقة مثلها تعددا وتنوعا. كان من أبرز تلك العلوم في دراسة المركّبات النحو أو علم التراكيب syntax، وكان من جملة الأصول التي قام عليها القياس الذي لا تخفى قدرته على توسيع اللغة العربية، بما يضمنه من إلحاق الغائب بالشاهد، ومعاملة مجهول الحكم معاملة معلومه. كما كان منها في دراسة المفردات الاشتقاق بأنواعه المختلفة: من صغير وكبير وأكبر وكُبّار(أو نحت)، وغير ذلك من الوسائل اللغوية التي تحقق للعربية النمو المطرد، والتوسع غير المحدود حسب المستجدات في كل عصر. ولقد وفّرت تلك العلوم والفنون للعلماء والمختصين وسائل إجرائية متنوعة، وآليات مختلفة تتصل بعلوم العربية الكثيرة.

النقد العربي القديم تراث حافل بالثروة المصطلحية:

إن نظرة عاجلة في "معجم مصطلحات النقد العربي القديم" للدكتور أحمد مطلوب، الذي ضم ثمانية عشر وثماني مئة مصطلح(١) تؤكد مقدار الخدمة الجليلة التي أسداها الدرس النقدي العربي القديم للغة العربية، وتدل على عظيم ما أسهم به نقادنا القدماء في سبيل ذلك. وقديما استطاع الناقد الكبير ابن رشيق أن يذهب في توليد مصطلح "السرقة وما شاكلها" وتفريعه حتى وصل به إلى عشرين مصطلحا(٢). ونشأة المصطلح النقدي في تراثنا كانت عربية خالصة وأصيلة بادئ بدء(٣)، ثم تدفقت إلى مصبه روافد أجنبية أثّرته وأثَّرت فيه بعد أن امتزجت الثقافات وتعارفت الأمم والشعوب في رحاب الدولة الإسلامية المترامية الأطراف، فالتقى الفارسي واليوناني والهندي والروماني والعربي في استحداث ثقافة مشكّلة ومعقدة، "... وبالطبع فإن مثل هذا التأثر والتأثير هو دليل صحة وتفاعل خلاق"(٤).

المصطلح في النقد العربي القديم تنامٍ متواصل وتطور مطرد:

من ينظرْ في معجم مصطلحات نقدنا القديم نظرة تاريخية يلحظْ تطورا مطردا، وتناميا متلاحقا للظاهرة المصطلحية جيلا بعد جيل. ففي كل جيل أو قرن نلمس إبداعا يحاول به أصحابه النفاذ إلى الجديد، وتجاوز الاكتفاء والتقليد، ولو كان ذلك بتناول المصطلح القديم أو الموروث تناولا جديدا يخلع عليه معنى مبتكرا واستخداما مستحدثا، فضلا عن وضع المصطلح الجديد.

فإذا رصدنا الفترة الممتدة من عبد الله بن المعتز (ت.٢٩٦هـ) صاحب أول مصنف بديعي وصل إلينا وهو "كتاب البديع"، حتى ابن رشيق المسيلي القيرواني (ت.٤٥٦هـ) في كتابه "العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، وجدنا حصيلة الانواع البديعية عند ابن رشيق تُعَدّ خمسين نوعا(٥).

فبعد ابن المعتز الذي وضع ثمانية عشرا نوعا بديعيا-بمفهوم البديع يومها والذي كان شاملا لأبواب من البيان والمعاني- جاء قدامة بن جعفر(ت.٣٣٧ هـ) الذي " ... يلتقي مع ابن المعتز في خمسة محسنات بديعية، كان هذا الأخير قد عرّفها، مع اختلاف في التسمية، ويزيد إليها تسعة محسنات جديدة لم يذكرها ابن المعتز، وبعد قدامة، نلتقي بأبي هلال العسكري في كتابه "الصناعتين" (الشعر والنثر) ... [الذي] بلغ بها واحدا وأربعين نوعا، أي بزيادة أربعة عشر نوعا ..."(٦). هذا بصرف النظر عن الفوارق الموضوعية والمنهجية بين النقد والبلاغة، والتي وضعت بين الحقلين لاحقا.

المصطلح النقدي القديم والتحيز البيئي والثقافي:

تحيط بولادة المصطلح وتطوره ظروفٌ وملابسات تدل على أصالته، وانبثاقه الطبيعي من البيئة التي أنتجته. تستوي في ذلك بيئته المادية بما تشتمل عليه من تضاريس ومناخ وغيرهما، وبيئته الروحية وما فيها من حضارة ومدنية وثقافة ودين وفكر، وسوى ذلك مما يرتبط بالقيم الروحية، والبنى الفوقية. فـ" ... في كل عصر تصبح المصطلحات السائدة شاهدا على المصدر الرئيسي الذي يتغذى من النقد ... "(٧).

ففي النقد العربي القديم الذي ولد أولا في الصحراء نجد مصطلحات من قَبيل " البدوي، الوحشي، الحُوشي، البارد، الإغارة، الاقتدار، الإكداء، الاهتدام، التثليم، الأوابد، الإيطاء..."، وهي مصطلحات تعود في أصلها اللغوي إلى الصحراء وما يلابسها، من نمط مَعاش وسكن وعادات وأخلاق وحروب وغارات ...

وحين دارت بالنقد عجلة الزمن، وتقلب في أطوار التحضر والتمدن، لاسيما في العصر العباسي وجد مسَّ الحضارة وغضارة العيش، فظهرت على المصطلح سيما التنعم مع انتشار قيم المجتمع الحضري الجديد والمختلط، وازدهار الصنائع والحرف، وظهور ما لم يكن منها معروفا من قبل، فتأثر النقد ومصطلحاته بكل ذلك، فصرنا نرى المصطلحات المأخوذة من الثياب وأزيائها ووشيها، ومن البساتين وأزهارها، ومن الحُليّ ونَظمها ... فمن أكثر ما يستوقف الناظرَ في المصطلحات يوم بلغت الحضارة العربية والإسلامية أوجها "... كثرة الألفاظ المستمدة من صفات الأزياء والثياب ... مثل التقسيم والتذييل والتسهيم والتدبيج والتوشيح والترفيل وغيرها، وهي ظاهرة تدل على مدى اهتمام النقد بالشكل وتعلقه به"(٨).

إثراء اللغة العربية مصطلحيا خطة مدروسة وسياسة واعية:

إن السعي إلى إثراء اللغة العربية بالمصطلحات، وتوسيعِ آفاقها حتى تواكب مستجدات العصر لا يعني البتة المجازفة والتسرع والمجانية، ولا يستدعي أن يخبط المهتمون بذلك خبط عشواء، بل لا بد أن يكون ذلك صادرا عن وعي إبستمولوجي عميق، وخطط مدروسة، وإستراتيجيات بينة قائمة على وضوح الرؤية، ومستندة على معطيات نظرية ناضجة غير مستعصية على التطبيق، وهي الشروط التي تجعل وضع المصطلحات وتتبع مسارها في الاستخدام والواقع العلمي السائد أمرا معقدا وحِملا ثقيلا لا يستقل به الفرد كائنا من كان: علما وتمكنا وشهرة، ويجعل منه في المقابل همّا مؤسسيا تضطلع به مراكز متخصصة، وهيئات مشتملة على موارد مادية معتبرة، وكفاءات بشرية متنوعة، وإدارات ذات صلاحيات ومسؤوليات مختلفة.

هذا الأمر لم يعزب عن القائمين على البحث العلمي، وصانعي السياسات التعليمية، والمسهمين في المجال الثقافي في البلاد العربية من علماء وأدباء وبيداغوجيين، حتى السياسيين. فأُسست المجامع العلمية واللغوية في غالب تلك البلاد، وفي وقت مبكر من نشوء الوعي بضرورة ابتعاث كوامن الحياة في لغتنا

العربية، ومدها بوسائل التعبير الكافية واللازمة، في عصر تطورت فيه العلوم والآداب والفنون تطورا مذهلا ومتلاحقا لم نعد معه قادرين على الاجتزاء برصيدنا التراثي لمواكبة كل تلك الإنجازات ولو بالاصطلاح عليها والتسمية، كما قال حافظ إبراهيم على لسان اللغة العربية، مشيدا بعلماء الأمم الأعجمية الذين :

أتوا أهلَهمْ بالمعجزات تفنّنا

فيا ليتكمْ تأتون بالكلمات!(٩)

ومن المساهمات التي يتجلى فيها هذا الوعي النظري بقضية المصطلح مساهمة المجمع العلمي العراقي، الذي له سابقة مشهودة، ومبادرة رائدة في وضع المصطلحات العربية من جهة، وفي صياغة القوانين والقواعد العامة الواجب اتباعها عند صياغتها من جهة أخرى، وهي(١٠):

١. مراعاة المماثلة أو المشاركة بين مدلولي اللفظة لغة واصطلاحا لأدنى ملابسة.
٢. الاقتصار على مصطلح واحد للمفهوم العلمي الواحد.
٣. تجنب تعدد الدلالات للمصطلح الواحد.
٤. التزام ما استعمل أو ما استقر قديما من مصطلحات علمية وعربية، وهو صالح للاستعمال الجديد.
٥. تجنب المصطلحات الأجنبية.
٦. إيثار اللفظة المأهولة على اللفظة النافرة الوحشية أو الصعبة النطق.
٧. لا يشتق من المصطلح إلا بقرار هيئة علمية مختصة بوضع المصطلحات.
٨. إيثار اللفظة المفردة على المصطلح المركب أو العبارة لتسهل النسبة والإضافة ونحو ذلك.
٩. تجنب الألفاظ العامية.
١٠. تُفضّل مصطلحات التراث العلمي على المولَّدات والمحدثات.
١١. يُلجأ إلى ترجمة المصطلح الأجنبي عند ثبوت دلالته على معناه الاصطلاحي.
١٢. تجنب تعريب المصطلحات الأجنبية إلا إذا تعذر العثور على لفظ عربي ملائم.
١٣. ترى اللجنة أن يُراعى في استعمال الألفاظ الأعجمية ما يأتي:
أ. يرجح أسهل نطق في رسم الألفاظ المعرّبة.
ب. إحداث بعض التغيير في نطق المصطلح المعَرَّب ورسمِه ليتسق مع المنطق العربي.
١٤. تجنب استعمال السوابق واللواحق الأجنبية، لأن اللغة العربية لغة اشتقاقية وليست إلصاقية، ووجوب اعتماد الأساليب العربية في وضع المصطلحات.
١٥. يُستعمل كل لفظ من الألفاظ المترادفة في معناه الخاص في المصطلحات العلمية، لأن الترادف كثيرا ما يكون أوصافا للأشياء لا يراد بها المطابقة التامة في المعنى ...

وقد لاحظ الدكتور أحمد مطلوب أن عناية المجامع العربية بالمصطلحات اللسانية والنقدية لم تبلغ درجة عنايتها بالمصطلحات العلمية والتقنية، مُرجعا ذلك إلى أسباب منها(١١):

١. أن للنقد العربي مصطلحات كثيرة، وأن الأدباء والباحثين قادرون على أن يأخذوا مصطلحاتهم من القديم.
٢. أن النقد ليس مما يؤثر في اللغة واتجاهاتها كما تؤثر العلوم المستحدثة ومصطلحاتها، ولذلك لم تكن هناك خشية من المصطلح الأجنبي أو المعرب ما داما قليلين.
٣. أن الأدباء والمؤلفين شرعوا في وضع المصطلحات النقدية منذ عهد مبكر واتفقوا على كثير منها وشاع استعماله بين الناس.
٤. أن النقد ليس مما يتصل بالتقدم العلمي الذي يشهده العالم، وأن الحياة الجديدة تفرض الاهتمام بالعلوم، وقد أدت هذه النظرة إلى إهمال الدراسات الإنسانية وتعثرها في كثير من الأحيان.

والحق أن القواعد السابقة التي وضعها المجمع العلمي صالحة للمصطلحات مهما تكن الحقول التي تنتمي إليها، والتخصص الذي تتصل به، لكونها قوانين نظرية مجردة، وإجراءات تقنية خالصة، فيكون تقصير المجامع هنا تقصيرا في وضع المصطلحات النقدية واللسانية نفسها، لا في تحديد القواعد والقوالب التي تصلح لها ولغيرها، بصرف النظر عن سهولة مناقشة الأسباب التي رأى الدكتور مطلوب أنها وراء ذلك الإهمال، والتي منها الذهاب إلى أن النقد ليس مما يتصل بالتقدم العلمي في العصر الحديث، ذلك أن النقد الحديث والمعاصر -والمستمد في أكثر توجهاته من الإنجازات اللغوية واللسانية- صار يتداخل مع كثير من الحقول والمعارف العلمية الطبيعية والتقنية، وراح يستمد منها كثيرا من مناهجه ونظرياته، في سعي منظريه وممارسيه إلى علمنة الدراسات اللغوية والنقدية.

مكاسب وآفاق:

في تراثنا النقدي إذًا من المصطلحات ثروة ضخمة ومعين ثرّ لا ينضب، كان في زمنه كافيا للتعبير عن كل القضايا التي شغلت بال النقاد، وملائما لمواكبة كل التطورات التي نالت النص الأدبي وهو ينتقل من عصر إلى آخر، فلم يقف التعبير المصطلحي حجر عقبة في تطور النقد يومذاك، حتى والأمة تدخل عصرها الذهبي :العصر العباسي الذي تفجرت فيه ينابيع الحضارة، وتتابعت فيه قيم التمدن. فوقف علماؤها ونقادها بشموخ وثقة أمام مقتضيات العصر، يواجهون طرائفها وبدائعها، ويقابلون كل جديد منها بجديد منهم، ويأخذون من ثقافات عصرهم ويعطونها، حتى استوعبوها واحتووها قادرين، وكانوا فيها بناة مساهمين، لم يقعد بهم اغتراب، ولم يبطّئ بهم يأس أو استلاب.

فإذا جمعنا إلى ذلك التراثِ من المصطلحات المتعينة والمتحققة تطبيقا ما حققته تنظيرا مجامعنا العلمية واللغوية الحديثة ومراكز البحوث في البلاد العربية علمنا أننا قادرون على أن نتبوأ المكانة الرائدة والمحترمة التي كانت لأسلافنا من قبل في هذا المجال، وأدركنا من جهة أخرى أن ما يقعد بنا عن ذلك إنما هو نوع من الانهزامية النفسية، وانعدام الإرادة السياسية التي لا يمكن إغفال أثرها في ذلك، خصوصا ونحن أمام مشروعات تتكفل بها إدارات ذات صلاحيات مقننة، وهيئات حكومية ذات سلطات نافذة.

جدير بالذكر أن مصطلحنا النقدي القديم كان متصلا –غالبا- بالشعر، وهو أمر مفهوم لكون الشعر خبز العرب، والجنس الأدبي الذي سيطر على الثقافة العربية دهورا، فلم ينفتح على الأجناس الأخرى إما لخلو الأدب العربي منها، وإما لأنها كانت ضعيفة الحضور، باهتة الصبغة، متوسلة بأدوات تعبيرية شعرية، وغير متميزة بأسلوبيتها الخاصة. وكان من شأن هذا الارتباط النوعي الخاص بين المصطلح النقدي والشعر عندنا، أن يضيّق أفقه، ويحصر مجاله، ومع ذلك بلغ ما بلغ، ووصل به العادّون إلى المئات.

هذا إذا ضيقنا زاوية التخصص، فصرفنا النظر عن المصطلحات البلاغية، علما أن بدايات النقد العربي القديم كانت بلاغية، وأكثر قضاياه ومباحثه ومصطلحاته ظلت شركة بينه وبين البلاغة ردحا طويلا من الزمن، وقد عدّ الدكتور أحمد مطلوب من المصطلحات البلاغية ألف مصطلح ومئة(١٢). في كتابه "معجم البلاغة العربية وتطورها". فلنا أن نتصور مقدار الفائدة التي تعود على محصلة ثروتنا المصطلحية، واللغة العربية عموما لو حذت مجامعنا ونقادنا المعاصرون حذو الأجداد في استحداث المصطلحات المناسبة للأجناس الأدبية، والفنون التي عرفها أدبنا العربي الحديث والمعاصر.

خاتمة:

لعل في ما سبق دليلا واضحا على الخدمة الجليلة التي قدمها نقدنا العربي القديم للغة العربية في مجال المصطلحات، ومثل ذلك يقال فيما طرقه من قضايا نقدية معروفة، كما أن فيه برهانا ساطعا على الجهود العظيمة التي بذلها النقاد العرب القدماء الذين سعوا سعيا مشكورا إلى إبقاء جذوة اللغة العربية متوهجة، وحرصوا على ألّا تؤتى العربية من قِبلهم، وعلى ألّا يتركوا فيها هوة حضارية، يستعصي على الأجيال اللاحقة ردمها.

كل ذلك من شأنه أن ينفخ في المشتغلين بالنقد العربي الحديث والمعاصر روح التحدي، ويشحذ هممهم لمواصلة مسيرة الأجداد، والمضي قدُما في بناء الشخصية الثقافية القومية المستقلة، والفاعلة في بناء صرح الحضارة الإنسانية الراهنة، وترك بصمات ظاهرة في سجل الثقافة المعاصرة، القائمة على التثاقف والعولمة، وسقوط الحواجز أكثر من أي وقت مضى، بل إن ذلك دافع للعمل المثمر والاجتهاد في كل المجالات والتخصصات الأدبية والعلمية والتقنية، على أساس أن المصطلح هو لغة التخصص، ومفتاح العلوم، وموقعه منها موقع واحد مهما تعددت وتباينت.

المراجع:

١. الدكتور أحمد مطلوب: معجم مصطلحات النقد العربي القديم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط.١، ٢٠٠١م، ص.٦.

٢. ابن رشيق المسيلي القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط.١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١ م، ج.٢، ٢٨٢-٢٨٣.

٣. محمد عزام: المصطلح النقدي في التراث الأدبي العربي، دار الشرق العربي، بيروت / حلب، د.ت. ص.٦.

٤. السابق، الموضع نفسه.

٥. عصام شعيتو: مقدمة كتاب: خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط.٢، ١٩٩١م، ج.١، ص. ٧.

٦. السابق، الموضع نفسه.

٧. د. إحسان عباس: فن الشعر، دار صادر، بيروت / دار الشروق، عمّان، ط.١، ١٩٩٦ م، ص.١٥.

٨. السابق، ص.١٦.

٩. حافظ إبراهيم: الديوان،مؤسسة النور للمطبوعات،بيروت،ط.١، ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠١ م،ص. ١٠٧.

١٠. د. أحمد مطلوب، معجم مصطلحات النقد العربي القديم، مرجع سابق، ص.٣-٤.

١١. السابق، ص. ٤.

١٢. د. أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط.١، ١٤٢٧ هـ/٢٠٠٦ م، ج.١، ص.٨